

الحمّام الشعبي بتلمسان

الهادي بو وشمة^(2:1)

تقديم

سوسيولوجية العلاقة بين الإنسان و الحمّام، يمكن تفكيك على ثلاثة أوجه مختلفة، من جهة الحمام هو فضاء لعلاقة الإنسان بجسده وبمكان وزمن الحمام، و من ناحية أخرى، يحقق هذا الفضاء حاجيات الجسد من الماء، أما الوجه الثالث، فإنه يحقق علاقة انسانية و جسدية من خلال فرص لقاء و حميمية الانسان بالإنسان أو الجسد بالجسد الآخر.

هذه العلاقات تتغذى و تتأسس على اعتبار الحمام كفضاء حاضن و عاكس إلى اليوم للجزء المجسد و المتجلي من حياة و تقاليد و أعراف و قيم الكثير من المجتمعات المتوسطة، و منها بالخصوص المجتمع التلمساني.

هذا يجعل منه (الحمام) التراث و التقليد العريقين، اللذين عرفهما هذا المجتمع، فهو عالم وشبكة من الأنساق و الممارسات و التمثلات، التي تتغذى تاريخيا و سوسيولوجيا من فاعليه، إنه أكبر من أن يعد فضاء للاغتسال و طقسا للعبور من النجاسة إلى الطهارة ومن المذنس إلى المحرم، فهو العالم الآخر للذكريات و التخيبيلات، و هو الفضاء الذي تتشبك فيه العلاقات الاجتماعية، كما أنه كان ولا يزال مركز المدينة في مقابل ثنائية المسجد و السوق كفضائين ملازمين.

و منه فإن الحمام نواة للهوية الثقافية و منظومة من القيم، التي تشكل حاوية مهمة من معيش الانسان التلمساني، كما أنه الفضاء، الذي يتقاطع فيه المقدس

⁽¹⁾ Département de sociologie, université Djilali Liabes, 22000, Sidi bel Abbes, Algérie.

⁽²⁾ Centre de recherche en anthropologie sociale et culturelle, 31000, Oran, Algérie.

بالدنيوي، و الاجتماعي بالثقافي، و الاقتصادي بالديني، فهو اللحظة المثلى لتعرية الجسد و الجماعة الاجتماعية في نفس الوقت، وإعادة النظر و مراجعة مقولة الجسد انطلاقا مما يمنح هذا الفضاء من علاقة و تواصل معه. في نفس السياق، كان الحمام ولا يزال بأبعاده و وظائفه الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية ذو دور ريادي في منظومة و أنساق المجتمع التلمساني و قيمه و ذاكرته، فهو فضاء للنقاش و التواصل و المراقبة و المعاقبة، كما أنه المجال السانح لإعادة إنتاج تعليمية الجنسي عبر جدلية التعري و التستر و الحياء و الوقاحة، و من ثمة كان الحمام ضرورة سوسولوجية و عتبة للعالم الخارجي و مسلك لفهم المجتمع التلمساني و تعرية طقوسياته الخاصة و قيمه و موروثه الخضاري، ذلك ما دفعنا إلى محاولة البحث و المقاربة الأمبريقية و وفقا لرؤية اثنوغرافية وظيفية للحمامات الشعبية بتلمسان.

I. وظائف الحمام في المجتمع التلمساني

اضطلع الحمام التلمساني بعدد الوظائف، التي جعلت منه معلما مهما عاكسا لهوية و ذاكرة هذا المجتمع، حاولنا تفصيلها حسب الأهمية على الشكل التالي:

1. وظيفة صحية

عدّ الحمام منذ نشأته الأولى، خصوصا منه الذي أقيم حول الينابيع المعدنية (حمامات علاجية) من أساسيات الصحة، إذ كان ولا يزال يلجأ إليه الناس و يتجهون إليه كلما أحسوا بالتعب، أو استعصى عليهم المرض، ففي حرارة الحمام تنشيط لعملية التعرّق الضرورية للصحة الجيدة. وفي تلمسان الكثير من أنواع الحمامات المشهورة بعلاج الروماتيزم و الأمراض الجلدية و حصى الكلى، من ذلك حمام بوغرارة، شيقر، سيدي العبدلي، و بعض العيون الطبيعية كحمامين بأوزيدان... إضافة إلى بعض الحمامات القريبة من المدينة كحمام بوحنيفية بمعسكر، و بوحجر بعين تموشنت إلى غير ذلك من الحمامات المعدنية بالجزائر عموما، غير أن أهمية الحمام بعمومه تبقى صحية و تتفاوت أهميتها بين الحمام العمومي العادي و الحمام المعدني، كما يعدّ بعد النظافة كأهم مقوم صحي تنشيطي لصحة الإنسان، لذلك راعى الأطباء القدامى ببلاد الأندلس و المغرب ذلك من خلال:

1.1 المقاصد الطبية للاستحمام

قدّم العديد من الأطباء والعلماء المسلمين منذ القدم - و الذين يبقي تراثهم الفكري متداولاً إلى اليوم بتلمسان - وصفات و شروط و ضوابط في ولوج الحَمَامات، من ذلك عبد الرحمان بن نصر الشيزري¹ وابن خلدون وابن الخطيب²، الذين خلصوا إلى القول على لسان الباحث المغربي بنحمادة سعيد: "ألا يدخل المرء الحَمَام في يوم شديد الحر، فإنه ييبس البدن، و لا في يوم شديد البرد و الريح، فإنه لا يأمن من النزلات عند الخروج منه، و لا يدخله عند امتلاء المعدة، فإنه يولد السدود و الحمى العفونية، و لا على جوع فإنه يُبَيِّسُ البدن و يُشعلُ حرارته و يُؤلِّدُ حُمى يوم، و لا بأثر جماع، [...]، و لا سهر و لا تعب [...]، و ليكن في دخول الحَمَام على خلاء المعدة، و وفرة القوة، و نشاط النفس، و اعتدال الفصل، و اعتدال النهار و ضحوته"³، كما حدّد ابن سينا أحسن الحَمَامات صحية في كتابه *القانون بقوله* "خير الحَمَام ما قدم بناؤه و اتسع فضاؤه و عذب ماؤه"⁴.

¹ لأكثر تفاصيل أنظر، بن نصر، الشيزري عبد الرحمن (1946)، كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشر السيد الباز العريني، القاهرة.

² هذه المصادر يشير إلى بعضها بنحمادة، سعيد (2007)، في عمله، *الماء و الإنسان في الأندلس*، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، ط1، ص. 231، نذكر منها:

ابن خلدون، أبو عبد الله محمد بن يوسف، (ت. 14/08م)، *قلائد العقبان في صحة الأبدان*، مخ، خ، ق، فاس، رقم 1564.

ابن الخطيب، لسان الدين عبد الله بن عبد الله، (ت. 1375/0776م)، *الوصول لحفظ الصحة في الفصول*، مخ، خ، ح، الرباط، رقم 77.

³ بنحمادة، سعيد، *المرجع نفسه*، ص. 231.

⁴ المناوي، عبد الرؤوف (1987)، *كتاب النزهة الزهية في أحكام الحَمَام الشرعية و الطبية*، تحقيق و تقديم الدكتور عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية للطباعة و النشر و التوزيع، (د.م.ط.)، ط1، ص.

1. 2. كيفية الاستحمام

بالمقابل المقاصد العلاجية و الطيبة للاستحمام، وصف الأطباء العرب و المسلمين، و منهم أهل تلمسان الكيفيات المثالية و الأنسب لعملية الاستحمام من خلال تحديدهم و تنظيمهم له و ذلك بالانتقال التدريجي بين بيوت الحمّام الثالث و تجنب الإطالة به، فوضعوا تنظيماً محكماً و رشيداً غير مهلك و جب لكل داخل الحمّام الالتزام به تجنباً للمهلك و المرض، فكان هذا جزء من قواعد و عادات و تقاليد المجتمع الإسلامي - و منه التلمساني بالخصوص- في الاستحمام و ولوج الحمّامات، و التي ترسّخت في أعرافه، فكانت تعبيراً عن حجم المعرفة المائية التي تعارف عليها الأطباء الأسلاف، و الذين أعطوا من خلالها بناء نظرياً للممارسة الواقعية لتدبير البدن⁵.

2. وظيفة جسدية و سيكولوجية

إن علاقة الإنسان بجسده قديمة قدم البشرية غير أن تطوّرات الإنسانية و تشعب معارفها و عاداتها و أعرافها و دياناتها و مقدساتها جعل أساس العلاقة في مقام أول ترتبط به كمفهوم ثقافي اجتماعي يختلف من بيئة إلى أخرى و من عصر لآخر. فالجسد هو الصورة المحددة و المعبرة في مقام أول لهوية الإنسان، كما أنه المكان الصغير الذي يربط الإنسان بالمكان الكبير للكون، فالإنسان يعبر عن علاقته مع العالم عبر جسده، و بالمقابل فإن الحمّام عدّ الفضاء الأهم في علاقة الإنسان بجسده من خلال تفاعله معه، و ما نتج عنها لحالات من الشعور.

و منه فإذا اعتبرنا الوجود الانساني في الزمن التاريخي هو وجود جسدي في الأساس، فإن الحمّام اعتبر مكان لتفاعلات هذا الجسد مع روحه و عقله، و مع الجسد الاجتماعي المحيط به. و إنّ نخصّ به مرتدي الحمّام في المقام الأول، إذ إن العلاقات التي توفرها عمليات الاستحمام، من خلال ممارسات الجسد و طقوسه أثناء ذلك، تجعل منه اجتماعياً أكثر و في حاجة للآخر، خصوصاً ما تعلق بتنظيفه الجسد و ما يتطلبه من استرخاء و راحة، هذه الأخيرة، التي تعد شعوراً نفسياً و جسدياً يجنيه المستحم بعد عملية الاستحمام، التي عرف من خلالها الإنسان منافع متعددة لعلاج مشاكله الصحية و المعنوية و الجسدية، بفضل

⁵ بنحمادة سعيد، مرجع سابق، ص. 232-233.

عنصري الحرارة و الماء. فاستسلم لذلك و صنع لنفسه في علاقته بالحمام طقوسا غالبا ما كانت تظهر من خلال صور التردد المنتظم عليه و استسلامه لمن يُدرك له جسده و ينظفه من قشوره الميتة، إلى أن يترك جسمه نظيفا لما يشعره بالراحة من متعة الاغتسال⁶ التي جعلت من الحمام فضاء يجمع بين ملء الفراغ و متعة الاستحمام⁷، أو كما يقول الحميري: "[...] يرطب الأبدان، و ينميها و يزيد في حرّها الغريزي و يفرج النفس و يذهب الحزن"⁸، و من جهة أخرى عدّ فضاءاً للبحث عن الجمال و الزينة، ينعكس البحث عن ذلك من طرف المرأة التلمسانية، في استعمالها العديد المستلزمات أثناء عملية الاستحمام و بعدها، و التي لا تزال تحافظ على الجزء المهم منها إلى اليوم.

في الأخير، الحمام بقدر ما هو فضاء "للتطهر الفيزيولوجي، فإنه أيضا يحيل إلى نوع من التطهر السيكولوجي بما يمنحه من إمكانية للاسترخاء و التفرغ للجسد و العناية به"⁹ كما تقول الباحثة المغربية *خلود السباعي*، فهو مبني لخدمة و تحقيق متعة الجسد و مكان للتذاذ، و في نفس الوقت تحقيق تناغم نفسي للذات، و من ثمة يوفر الحمام فرصتين الأولى تخص الاغتسال الجسدي أما الثانية فتوفر الاغتسال العقلي¹⁰.

3. وظيفة اجتماعية و استراتيجية

من الناحية الاجتماعية عدّ الحمام عند أهل تلمسان ميدانا لإنتاج الاجتماعي، كما أعتبر واحد من أهم فضاءات تشبيك العلاقات و توطيد التضامانات الاجتماعية بين ساكنة هذه المدينة و زوارها، فكان ملتقى اجتماعي بامتياز، و مصدرا للنشاط و السرور و الفرحة من جهة، و مسرحا للأفراح العائلية من جهة

⁶ كريم، فضيلة (2007)، *الحمامات موجز تاريخ الحمامات*، ترجمة يوسفى حضرية، دار النشر دحلب، الجزائر، ص 18-19.

⁷ المرجع نفسه، ص 15.

⁸ بنحمادة، سعيد، مرجع سابق، ص. 231.

⁹ السباعي، خلود (2006)، *الجسد الأنثوي و هوية الجندر*، دار القلم للطباعة و النشر و التوزيع، الرباط، ط1، ص 110.

¹⁰ وارهام، أحمد بلحاج آية (1997)، *شعرية الحمامات*، دار وليلي للطباعة و النشر، مراكش، ط1، ص. 110-43.

أخرى¹¹. برغم بعض المنافسة، التي يلقاها من مؤسسات أخرى، غير أن دوره يبقى مستمرا، ومعه تبقى طقوس و عادات المجتمع التلمساني مرتبطة في تمثالاتها و مخيالها الاجتماعي بالحمام و منافعه، الذي يجعل منه إلى اليوم فضاء للقاء و التعارف و نسج علاقات جديدة و حتى التجسس، و تبادل الأخبار سواء بين الرجال أو النساء فيما بينهن. نظرا للزمن الذي تقضيه النسوة في الحمام -حتى عدّ الحمام فضاء نسوي خالص¹²- و اعتبر الذهاب إليه من الاستراتيجيات الأنثوية في صناعة جسد يغري و يحافظ على البيت الزوجية، أو في كسب زوج و التأسيس لمشروع زواج.

من ناحية أخرى يمكن قراءة تأويلية لعلاقة المرأة بالحمام من زاوية اعتبار و لوجها الطويل له كأحد قواعد اللعب الأنثوية ضد التسلط الذكوري في شغل الفضاء العام و الانفتاح على المجال الخارجي¹³ عن فضاء المنزل خصوصا في المجتمعات الأبوية- الريفية، و يشكل بذلك الخروج إلى الحمام عند الكثير منهن فضاء موفرا لعنصر التحرر من السيطرة الذكورية للأب و الأخ، حيث يستغل زمن الحمام لقضاء المرأة لمشاغل أخرى كأن تستغل الفرصة للذهاب إلى السوق أو زيارة صديقة... الخ، و من ثمة "الحمام عند النساء هو أكثر من مجرد مكان للتطهر، بل هو خاصة المخرج، و كذلك المجال للتسلية و المراحة، إنه بمثابة المشهد المسرحي"¹⁴.

من جهة أخرى فإن الحمام شكّل أيضا استراتيجية ذكورية في صناعة الجسد، و في اكتساب معارف جنسانية... الخ، كما أنه لا يزال أحد الفضاءات الأكثر تأثير في التحولات البنيوية و القيمة لمجتمعاتنا، مثلما هو بدوره أصبح مجال للتحويل في ذاته نتيجة للظروف و التغييرات المحيطة به.

لكن ما يمكن استنتاجه من الميدان اليوم هو أن دور الحمام كفاعل اجتماعي عرف بعض التراجع أما اتساع و تعدد المؤسسات، التي أصبحت تزاحم أدواره (الحمام)، و لم يعد اليوم الملجأ المهم في الحياة الاجتماعية كما كان عليه في

¹¹ كريم، فضيلة، مرجع سابق، ص. 09.

¹² السباعي خلود، المرجع نفسه، ص. 109.

¹³ المرجع نفسه، ص. 109.

¹⁴ بوعيزي، محسن (2010)، السيمبولوجيا الاجتماعية، إصدارات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، ص. 97.

القديم. رغم ذلك فإن عودته الآني و حضوره اليوم أصبح أكثر انسجاما مع العصر الحديث، من خلال توسع حجم مرافقه و لواقفه مع تطعيمها بمنشآت عصرية كالمرشات و الجاكوزي و الصونا... الخ، كما لم يعد المسجد و السوق الفضاءات الوحيدة، التي تستهوي وجوده، بل أصبحت مرافق جديدة اليوم كالملاعب مثلا تتوفر بدورها على الحمامات.

في سياق ذي صلة، كان و لا يزال الحمام بتلمسان فضاءا للمساواة و امحاء الطبقيّة و انعدام للفوارق الاجتماعية و التمايزات، و لولا الملابس و الحلّي، التي يمكن أن تميز زبونا عن آخر و تجلب الانتباه لانتمائه الطبقي، لبقّي الحمام الفضاء، الذي تمارس فيها المساواة بامتياز.

رغم ذلك يبقى الحمام فضاء لتجلي مظاهر المساواة الاجتماعية بفعل تخلص المستحمين من الألبسة، التي يتفاضل بها الناس، لذا كان هذا الفضاء يحيل دائما و رمزيا بالأخص على الآخرة و يوم الحشر¹⁵.

4. وظيفة ثقافية و حضارية

مثّل الحمام الفضاء المهمّ في التاريخ الثقافي و العمراني بهذا المجتمع المحلي، إذ أنّ محتواه الطقسي و عاداته، عادة ما كانت المرأة الثقافية العاكسة لتراثه و موروثه الحضاري، فالكثير من عاداته و تقاليده و مستلزماته في الاستحمام لا تزال مستمرة اليوم، و تعكس جزءا مهما من هويته و تجذره في التاريخ و الحضارة، كما يعكس امتزاجات المنطقة تاريخيا و ثقافيا بين الجنس البربري و المسيحي و العربي و التركي و الأندلسي و اليهودي، مع كل ما خلقه هذا الغنى الثقافي من تميّز للحضارة الزيانية و أهل تلمسان عموما بتقاليد حاضرة اليوم و مؤرّخة لعلاقة هؤلاء بالحمام ماضيا و حاضرا، و من ذلك طقوس الزواج مثلا.

إذ كان للحمام، و ما يزال، حضور قوي في هذه العادات و التقاليد بالمجتمع التلمساني، فكان دوره على سبيل المثال، حاضرا بقوة في عادات الزيانيين في الزواج، خصوصا عندما كان الأمر يتعلق بالبحث عن خطيبة، ففيه كانت تتمّ عملية معاينة العروس و مراقبة حركاتها و جسدها و هي عارية تماما للتأكد من خلو جسمها من العيوب. يقول محمد كرد علي في ذلك: " [...] و متى أصبح الأمر تقريبا واقعا، يذهبن (الخاطبات) إلى الحمام معاً و يرين جسمها عارية

¹⁵ بنحمادة سعيد، مرجع سابق، ص. 130-131.

و شعرها و يشمّم آذانها (كذا) و فمها و تحت إبطها و رائحة عرقها و ثيابها، و ينقلن ذلك إلى الخاطب و عميد الأسرة مع وصف شكلها و جمال وجهها و طولها و غير ذلك¹⁶، و بالمقابل كانت الفتيات تحاولن لفت الأنظار بإظهار رشاقتهن و جمالهن و أنوثتهن.

في سياق ذلك، و بقدر ما كان الحمّام فضاءاً تزويجياً، فإنه أيضاً كان و لا يزال فضاءً للاحتفال و الفرجة، فأثناء الزفاف مثلاً، كان أهل تلمسان و لا يزالون يحتفلون بدخول العروس الحمّام "يوم الحناء" كما تسمى محلياً مع جمع غفير من صديقاتها و قريباتها، و الأمر نفسه بالنسبة للعريس، الذي يمثل الحمّام له "طقس عبور" سواء في اختيار الزوجة أو لليلة الدخول على عروسه. الأمر نفسه من الاحتفال و الاستحمام كان يصاحب ذهاب المرأة النفساء بعد مرور أربعين يوماً عن الولادة إلى الحمّام، أين يُحتفل بها أيضاً، و تبقى الكثير من هذه الطقوس تحافظ على نمطيتها و يعاد انتاجها إلى اليوم، كما أنّ الحمّام كان دوماً فضاءً للسحر و الشعر و النثر¹⁷.

تمدينياً، فقد كان الحمام بتلمسان الرومانية و الزيانية و المرابطية و الموحدية و الزيانية ذا دور هام ساهم في تطوير نسيج و تحضّر المدينة و تمدين مجالها و باقي أمصارها، كما بيّن من جهة أخرى تفاضل تلمسان و تطور عمرانها المائي، لأنها (أي الحمّامات) كما يستأثر عن ابن خلدون "إنما توجد في الأمصار المستحضرة المستبحرة العمران، لما يدعو إليه الترف و الغنى من التنعم، و لذلك لا تكون في المدن المتوسطة"¹⁸، هذا من جهة، و من جهة أخرى كان الحمّام فضاءً للقاء الحضر بالبدو كما يقول عمر كارلي Omar Carlier¹⁹ و من خلالهم أوساط اجتماعية ذات قيم متعددة.

¹⁶ كرد محمد علي، (1972)، *خطط الشام*، ج. 6، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، ص. 277.

¹⁷ Carlier, O. (2000), « Les Enjeux Sociaux du Corps, le Hammam Maghrébin (19-20 siècle) lieu pérenne, menacé ou recréé, *Annales, Histoire, Sciences sociales*, 55 année, N°6, Nov- Déc 2000, Paris, éd. l'École des Hautes Etudes en Sciences Sociales, p. 1312.

¹⁸ ابن خلدون، عبد الرحمن (2004)، مقدمة العلامة ابن خلدون المسمّى: *ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر*، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ط1، ص. 394.

¹⁹ Carlier, O., *op.cit.*, p. 1307.

و لعل ذلك ما تساهم به حمامات تلمسان اليوم خصوصا منها المعدنية، إذ رغم الترييف، الذي أصاب المدينة نتيجة الحراك الاجتماعي و هجرات بعد الاستقلال، فإنها ساهمت إلى حدود كبيرة في تمدين مجال كبير من تلمسان الحالية، و توسّعت شبكة حماماتها لتشمل العديد من القرى بعد 1980م خصوصا، كما جلبت فوائد حماماتها الصحية عددا كبيرا من السياح للتداوي والنزهة، فتحوّلت معها حمامات كحمام بوغرارة و الشيقرو سيدي العبدلي إلى فضاءات استشفائية و سياحية. ساهم تردد المرضى عليها في تمدينها - بمفهوم المدينة الحالية بتناقضاتها السوسيو ديمغرافية و العمرانية، إذ أن الإقامة فيها تتطلب إنشاء مرافق عمرانية تستجيب لطول فترات العلاج.

5. وظيفة دينية

كان الحمام في المجتمع التلمساني المسلم موازيا دوما في لدور المسجد "و الغرفة الخلفية منه"²⁰، فمتطلبات أداء الصلوات و الفرائض الدينية و ما يتوجبه من نظافة و غسل أديا إلى تحوّل في دوره خصوصا بعد ظهور الإسلام، مما جعله مؤسسة لا غنى للمسلم عنها في طهارته²¹، و هو ما يعكس ارتباط الإنسان المشرقي و المغربي بالحمام عن بقية الأمم، إذ عرفه منذ القدم و جعله معبدا له في الاغتسال و التطهر، و من ثمة كان موقعه غالبا بالقرب من المساجد²² و مدخلا له.

الإسلام كدين ربط كثيراً من تكاليف العبادة بالماء، و جعل من الطهارة شرطاً لأدائها، و غالبا ما كانت عملية الاستحمام سواء في الحمام الفردي المنزلي أو الحمام العمومي مقصداً لنظافة الإنسان المسلم على الرغم من الخلافات الفقهية حول دوره، و ضوابطه... الخ، و اعتباره بؤرة للاختلاط و مكانا هابطا للعري الفاضح بين زبائنه.

²⁰ بوحدية، عبد الوهاب (2000)، *الجنسانية و الاسلام*، ترجمة مقلد محمد علي، سراس للنشر، تونس، ص. 215.

²¹ موساوي، سليمة (1999)، "حمامات مدينة تلمسان: نموذج حمام الصباغين"، من مجلة *الثقافة*، إصدار وزارة الثقافة والاتصال، الجزائر، السنة الرابعة والعشرون - العدد 119، ص. 195.

²² وارهام، أحمد بلحاج آية. مرجع سابق، ص. 37.

في سياق مرتبط، مثّلت العديد من الحمّامات بتلمسان الزيانية و بعدها مصدرا للدخل أو ما يصطلح عليه بالوقف دينيا، إذ أنشأت الحمّامات بجواري المساجد والمدارس و الزوايا و كانت وقفا لعديد المؤسسات سواء منها الدينية أو الثقافية أو الجهادية أو الخيرية في التسيير و العمل. و من الأمثلة على ذلك حمّام الطّبول بتلمسان الزيانية، الذي ورد اسمه في وثيقة الأوقاف، التي أصدرها أبو حمو موسى الثاني و الخاصة بالمدرسة اليعقوبية، و كذلك حمّام العالية و الحمّام القديم، اللذين حبسهما السلطان أبو الحسن بن أبي سعيد وقفا لمدرسة و جامع بناهما²³، و كانت أغلب الحمّامات بتلمسان موقوفة على المساجد و المدارس و الزوايا²⁴.

6. وظيفة اقتصادية و خدماتية

شكّلت الحمّامات بتلمسان وسيلة من الوسائل المادية الأساسية، التي اعتمدها صانعو الحمّامات منذ أول صناعة لها، كما ساهمت في الحياة بعمومها سواء منها الدينية أو السياسية و الاجتماعية، من خلال مداخيلها الاقتصادية، التي سخرت في تاريخ الدول بتلمسان كوقف، إضافة إلى العديد من المشكلات و الصفقات وقعت و أبرمت بداخلها، و من ثمة كان و لا يزال الحمّام فضاء للعديد من الأنشطة التجارية²⁵ فالكثير من حمامات تلمسان، يضم فضاءها البراني، مكانا للعديد من المنتوجات من قبيل المشروبات الغازية و الماء، و مختلف مستلزمات الاستحمام من صابون و العطور و الكاسات و المحكك، عوضت هذه المواد وظيفيا الدلوك و السدر و هو ورق شجر النبق و نبات الليف، الذي كان يستخدم قديما في عملية الغسل و حك الجسم²⁶، إضافة إلى الخطمي أو الغاسول، الذي كان يستعمل إلى زمن قريب... الخ، كما أن و لوج الحمّام لم يكن أبدا حكرًا على

²³ Brosseard, Ch. (1985), « Les inscriptions arabes de Tlemcen », 3^{ème} année, n° 03, in *Revue Africaine*, années 1858-1859, Office des publications universitaires, Alger, Edition n° 1928, p. 410-412.

²⁴ فيلالي، عبد العزيز (2002)، *تلمسان في العهد الزياني دراسة سياسية عمرانية، اجتماعية، ثقافية*، ج1، موم للنشر والتوزيع، الجزائر، ص.297.

²⁵ بهيني، عبد المجيد (2008)، « الحمامات العمومية والديمغرافية التاريخية: أية علاقة؟»، الحمّامات الشامية أنموذجاً، من الكتاب الجماعي *دراسات تاريخية في العمارة والسكن، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية*، رقم 94، جامعة محمد الأول، وجدة، ص. 82.

²⁶ ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي (1988)، *لسان العرب*، ج1-ج12، دار الجيل، بيروت، دار لسان العرب، ط1، مادة "سدر".

أبناء المنطقة التي يوجد بها، بل كان يرتاده أيضاً الغرباء وعابرو السبيل، وهي عادات لا تزال قائمة اليوم، على الرغم من أن الحمام بتلمسان تحول إلى ملكية عائلية وخاصة و لم يعد وقفا.

مع بداية القرن الثامن عشر تحولت الحمامات بالمغرب و الجزائر و تلمسان إلى فنادق تؤدي خدماتها ليلا، خصوصا مع اشتداد الحركة التجارية، باعتبار أن الحمام كان دوما ملازما للمسجد و السوق²⁷، ولا يزال إلى اليوم فعله بتلمسان. كما وفرت هذه المنشأة فرص شغل متعددة و متنوعة تراوحت بين الخدمة و التجارة، فقد شكّلت فضاء لتقديم خدمات متنوعة و متكاملة لولاها لما أمكن ضمان استمرار نشاط هذا المرفق العمومي، فهناك الحمامي، و الناطور أو الوقاف، و المزين أو البلان و حتى الحمام أحيانا²⁸، و المدلك (الكياس)، و الوقاد، و أخيراً الزبال.

*الحمامي: مهمته إدارة أمور الحمام و تدبيرها. فهو المسؤول الأول (المعلم)، الذي يقوم باستقبال الزبناء و استخلاص ريع الاستحمام و السهر على التسيير العام²⁹.

*الناطور أو الوقاف: كان يسهر على حفظ أثواب الناس³⁰، و على استبدال المآزر النظيفة بالمآزر المستعملة، و أدوات الاستحمام الأخرى، كما كان، أحيانا، مكلفاً بنظافة الغرف³¹.

*المدلك أو الحكاك و الكياس بلغة أهل تلمسان: كان يدلك بيده أجسام المستحمين، أما اليوم فإنه يعمل بواسطة ما يسمى بـ"الكاسة".

*المزين أو البلان: كان مكلفاً بالحلاقة خصوصا، كما أنه بيعض الحمامات كان يوجد حمامون يقومون بوظيفة التطبيب التقليدي (الحجامة).

خدمات أخرى تتعلق بتدبير عمل الحمام من الخارج خصوصا، كانت تحتاج إلى قيمييين يشرفون عليها نذكر من هؤلاء:

²⁷ Carlier, O., *op.cit.*, p. 1311.

²⁸ Lewis, B., Ménage, V.-L., Pellait, Ch., Schacht, J. (1990), *Encyclopédie de l'Islam*, t. III, nouvelle édition, Paris, maison œuvre et la rose, p. 143.

²⁹ بهيني، عبد المجيد، مرجع سابق، ص. 84.

³⁰ المرجع نفسه، ص. 84.

³¹ الشيزري، بن نصر عبد الرحمان، مصدر سابق، ص. 88.

«الوقاد: و كان مكلفاً بإيقاد النار و تسخين الحَمَام، و قد أصبح غير موجود حالياً، نظراً لعامل التكنولوجيا و استبدال الحطب و الفحم بالغاز.
 «الزَبَال: ومهمته جلب روث الجمال و الحمير و البقر و الحطب و الأخشاب و ما إلى ذلك، إلى الحَمَام على ظهر الحمير³²، و كان مكلفاً أيضاً بتطعيم الفرن أو الموقد بالوقود الطبيعي كلما تطلب الأمر ذلك³³، غير أن ذلك لم يعد اليوم موجوداً نظراً لعوامل التكنولوجيا، حيث بدأت الحمامات تكتفي في تسييرها وتدبيرها على عاملين أو ثلاثة منهم الحمامي (المعلم)، الذي يتكفل بقبض ثمن الاستحمام و بيع مختلف الحاجيات، يضاف له الكياس تقابله الطيابة عند النساء.

7. وظيفة سياسية

مثل الحَمَام في العهد الروماني بتلمسان إلى جانب اعتباره كفضاء للراحة و الترفيه و الاستمتاع، مكانا للقاء و الاجتماع بين كبار الساسة في قلب القاعة الساخنة لمناقشة المسائل المالية و السياسية³⁴. بينما عرف في عهد الدول الإسلامية العديد من "الاغتيالات كما حبكت به العديد من المؤامرات و دسّ الدسائس، كما كان ويبقى بؤرة للاستخبارات و وكالة أخبار تستقي أحوال المجتمع المدني و السياسي"³⁵.

في سياق متصل، يبقى الحمام اليوم إلى جانب بعض أدواره السالفة الذكر، ذي أهمية لا تقل عما سبق، إذ الكثير من الأحزاب و التنظيمات خصوصا بمجتمع تلمسان تستغل الحَمَام لنشر أفكارها و إيديولوجياتها، خصوصا أثناء الحملات الانتخابية بين جميع شرائح المجتمع و بالأخص الفئة النسوية، التي توظف للدعاية لزوج أو لأحد معارفها. و تحظى ما يعرف بالطيابة بالأهمية نظراً لدورها و علاقاتها المتعددة بزبوناتها.

³² شاكرا، لعبيني (2007)، *العمارة الذكورية: فن البناء و المعايير الاجتماعية و الأخلاقية في العالم العربي*، رياض الريس للكتب و النشر، بيروت، ط1، ص. 184.
³³ بهيني، عبد المجيد، *الرجوع نفسه*، ص. 85.
³⁴ كريم، فضيلة، *مرجع سابق*، ص. 15.
³⁵ وارهام، أحمد بلحاج آية، *مرجع سابق*، ص. 87-93.

رغم كل ذلك مما اضطلع به الحمام من أدورا و وظائف، فإن فترة منتصف التسعينات، و بخاصة مع اشتداد الأزمة الأمنية، عرف كسادا رهيبا ميزه عزوف النسوة عنه خصوصا، بسبب الخوف من الأعمال الإرهابية، كما أدلج الحمام وأصبح نافذة سياسية - اجتماعية لممارسة الرقابة على المجتمع وعلى الفضاء العام.

II. بنية الحمام التلمساني

في هذا الجزء الثاني من البحث سنقف أساسا على الوصف لبنية الحمام التلمساني سواء منها المتعلقة باعتباره كفضاء فيزيقي ورمزي من حيث أقسامه وآليات اشتغاله سواء منها التقليدية أو الحديثة، أو تلك المتعلقة ببنيته الزمنية والطقوسية، وسنتهي إلى تجليات ذلك على مستوى طقوس الاستحمام خصوصا.

1. مورفولوجية الحمام وفضاءاته

الحمام كبنية متجانسة تعكس وظائف الحمام و ممارساته المتنوعة و ذلك لطبيعة تنوع الفضاء الذي يحويه، إذ كانت الغرف ترتب وفق نظام خاص، السقيفة في المقدمة يعادل جوها الأسطوري و الوظيفي غرفة ارتداء الثياب في الحمامات اليونانية و الرومانية القديمة، تليها حجرة الأمانات، حيث يخلع الرواد ملابسهم و يرتدون مآزر الاستحمام، و منه يكون المرور عبر البيت البارد إلى القاعة الوسطى، و هي مركزية واسعة بها ماء فاتر و تستخدم للتوطئة بين البيتين البارد و الساخن. أما البيت الأخير فهو أكثر فضاءات الحمام سخونة ما يجعل المرء يتصبب عرقا، و تقع خارجه غرفة صغيرة للاستعمال الشخصي و للوضوء، و بذلك يحتوي كل من الحمامين الروماني و الإسلامي على استعدادات فذة للاغتسال من حمامات البخار و أخرى باردة و ساخنة، إلى جانب برك السباحة و المرشات الباردة والساخنة³⁶.

و بالمجمل يمكن الوقوف في الحمام التلمساني الشعبي على ثلاث فضاءات أساسية، الفضاء الأول منها يتعلق بما يمكن أن نسميه بالفضاء البراني (Frigidarium) باعتباره الأقرب للفضاء الخارجي من جهة، و من درجة الحرارة

³⁶ بوحدية، عبد الوهاب (2001)، الإسلام و الجنس، ترجمة و تعليق العوري، هالة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، ص. 234.

من جهة أخرى، و يعتبر أساسيا في بنية الحمام، لأن به مجموعة من الممارسات، التي تتعلق بالوجهة الاجتماعية من خلال تغيير الملابس و التفاخر و المزيادات .

و الفضاء الثاني هو الوسطاني³⁷ (Tepidarium)، و هو متدرج بالنسبة لحرارته مقارنة مع البراني، و هو تحضير للفضاء، الذي يليه من حيث درجة الحرارة، كما أنه المكان الأنسب لأخذ قسط من الراحة دون الإضرار بالجسد ودون الاحساس بالبرد و السخونة، كما يعد المكان الأنسب لتبادل أطراف الحديث.

أما الفضاء الثالث فيتعلق بالفضاء الجواني (Caldarium) و هو الأكثر حرارة و المكان الأفضل للتعرق و التمدد و التكييف³⁸ كما يحلو لأهل تلمسان تسميته، و يتم التدرج بين هذه الفضاءات الثلاثة و لكل فضاء ممارساته الخاصة به . ينتهي الاستحمام، إلى العودة عبر البيوت الثلاثة إلى غرفة استبدال الثياب بعد لباس مئزر الخروج (فوطه كبيرة تغطي الجسم من السرة إلى الركبتين، وأخرى تستعمل لتنشيف بقية الأعضاء و تغطية الرأس تفاديا عن الاصابة من نزلة برد) حيث يأخذ الزبون قسطا من الراحة على المقاعد الوثيرة، التي تتباين أغطيتها وتتعدد، و بعد ذلك يقدم ثمن الاستحمام ومستلزماته، و الذي يمكن أن يكون مسبقا مع زمن الدخول، و يهيم بالمغادرة إلى بيته.

2. آليات اشتغال الحمام التلمساني التقليدي

تتوزع بنيتي اشتغال الحمام و ممارسة طقوس الاستحمام بمجتمع تلمسان على قسمين، الأول متعلق بالأدوات، التي اشتغل و يشغل بها فضاء الحمام سواء في صورته التقليدية أو الحديثة، أما القسم الثاني فيه فيتعلق بالأدوات الأساسية، التي تدخل في عملية الاستحمام في حد ذاته، و تشكل أحد طقوسه.

2. 1 أدوات اشتغال الحمام

إن الحمام كثافة و مؤسسة تقليدية و مركز أساسي في مدينة تلمسان توارثته الأجيال عن بعضها، ما خلف معه مجموعة من الممارسات المرتبطة به في صورته التقليدية، و كان ذلك آلية أساسية أسهمت في اشتغاله بطريقة جعلته يستمر

³⁷ شاكرو، لعبيبي، مرجع سابق، ص. 173.

³⁸ التكييف، يعني التدليك و يقوم بهذه الوظيفة "الكياس" بالنسبة للرجال و "الطباية" بالنسبة للنساء.

تاريخيا، و يبقى مطلبا اجتماعيا و ثقافيا، و ذلك لطبيعة سحره الأخاذ، نتيجة تقليديته المستمدة من طبيعة هندسيه و سمك جدرانه و منافذ دخول الهواء إليه و خروجه منه، بحيث جعلته يحتفظ بدرجة حرارة متوازنة داخل فضاءات الثلاث السابقة الذكر، و كان من عناصر جودة الحمام التلمساني اشتغاله إلى أزمنة قريبة على الحطب و المخلفات القابلة للاشتعال و خصوصا ما يسمى محليا "بالفيتور"³⁹، من أجل تسخين الماء و توزيعه تحت مسارب موزعة بطرق منظمة تحت أرضية الحمام، حيث يصهر عامل (قِيم) يراقب فرن الحطب، و ينظم دراجة حرارته بشكل تقليدي، ذلك أعطى للحمامات "لذاذة و طيبة" كما قال ياقوت الحموي⁴⁰.

في ذات السياق، و رغم انتشار حمامات جديدة عصرية مبنية في اشتغالها على الأدوات الكهربائية السهلة التسيير إلا أن الحمام التقليدي، الذي يعمل بالحطب كان و لا يزال أكثر اهتماما من طرف الفاعلين، حيث يحنُّ العديد من المبحوثين لتلك الحمامات، التي كانت منتشرة بمحيط تلمسان القديمة، و التي كانت أرضيتها موضوعة من حجر طبيعي يستمد حرارته من مسارب المياه، التي تجري تحته، عكس الحمامات المعاصرة اليوم بتلمسان، التي يغلب على أرضيتها بلاطات رخامية والزليج ولا تجري تحتها مياه ساخنة، و إن كان الأمر لا ينطبق على جميع الحمامات، حيث لاحظنا في الميدان محافظة بعض الخواص في بناء حماماتهم على النمط القديم و المتعلق أساسا بوضع أرضيات من الحجر الطبيعي المرصوص بالبيت الساخن.

2.2 الأدوات التقليدية الأساسية في فعل الاستحمام

فعل الاستحمام في السياق التلمساني يقتضي حضور مجموعة من المستلزمات، التي يراها أهل تلمسان أساسية في عملية الاستحمام، و ذلك يوحى بأهمية الحمام في الحياة المعيشية للأفراد، حيث وجد بالمدينة دور لصناعة الصابون المعطر، و العطور و الاهتمام بالغاسول و السواك و الحناء، و ذلك كله مرتبط بثقافة الاستحمام و طقوس التطهير، التي تقتضيها التعاليم الإسلامية من جهة

³⁹ "الفيتور"، من مخلفات الزيتون المعصور و القابل للاشتعال بسرعة لصغر حجمة و لبقايا زيت الزيتون به و يعطي رائحة جميلة.

⁴⁰ الحموي، ياقوت بن عبد الله، (بتط)، معجم البلدان، ج 1، دار الفكر، بيروت، ط1، ص.267.

و تمثلات الجسد من طرف الفاعلين لقيم النظافة و الصحة العمومية من جهة أخرى. و يصح قول عبد الوهاب بوحديبة أن الحمام هو "مقدمة و خاتمة لأعمال البدن أو بتعبير آخر وضع نهاية لأعمال البدن"⁴¹.

إن الدخول إلى الحمام - كما سلف الذكر- يقتضي وجوب ارتداء الفوطة للدخول و فوطة للخروج، الأولى تتعلق بستر العورة في عملية الاستحمام لكن سرعان ما يستغنى عنها داخل الحمام و الثانية من أجل تجفيف الشعر و البدن من مياه الاستحمام، و تعتبر هذه الفوطات جزء من زينة المرأة حيث تستعمل الفوطات المغربية والجدابة و المطرزة بخيط لامع، كما تُخصّ العروس بفوطة خاصة، حتى يتم التعرف عليها داخل الحمام و السؤال عنها و عن عائلتها، ليتم دمجها ضمن المجتمع و ربط الصلة بها، كما تدخل التلمسانيات إلى وقت قريب بالقبايق الخشبي، الذي كان منتشرا إلى زمن قريب بالحمام التلمساني، و الذي يحمي المستحم من التزحلق داخل الحمام بسبب المواد المنظفة، و بعد الدخول تجد مجموعة من الدلاء الخشبية و الطاسات للاغتسال، و تستعمل "الكياسة" للفرك و إزالة الأوساخ، و تصنع في الغالب من مواد محلية و نباتات، كما تستعمل المرأة الغسول لتحفظه من التقصف و تكسبه قوة و حيوية و تليينه، و غسله مرة ثانية بورق الزيتون و غيرها، كما تختلف المواد المستعملة حسب الفئات الاجتماعية.

مقارنة، يختلف الأمر اليوم، حيث العديد من المواد المصنعة، لم تعد تحمل معالمها الطبيعية، التي كانت عليها قديما، حيث مواد كثيرة مصنعة اليوم، يحملها الرجل و المرأة التلمسانية إلى الحمام، و رغم ذلك حافظت بعضها على عتاقها و نمطيتها من قبيل البشكير و الكاسة و الطفل و السطل... الخ، أما من النواحي الفيزيقية، فعوض ما يسمى بالجائبات⁴²، الدلاء الخشبية و البلاستيكية القديمة التي كانت تستعمل، كما أصبحت تتوفر البيوتات الساخنة بالحمامات على حنفيات مزدوجة الماء (البارد والساخن) لكل فرد، و بالتالي لم يعد مرتدي الحمام مطالبين بمشقة جلب الماء من الحوض الاسمنتي.

⁴¹ ، بوحديبة، عبد الوهاب، مرجع سابق، ص. 238.

⁴² الجابية، هي آنية إسمنتية و رخامية كبيرة، تعوض وظيفيا الدلاء القديمة التي كان يستعملها مرتدي الحمام في الاغتسال.

3. زمن الحمام وطقس الاستحمام

زمن الاستحمام هو زمن الترفيه و المتعة و التواصل مع العالم الخارجي، خصوصا عند النساء، حيث تقضي النسوة معظم يومها داخله، مقسمتا له بحسب تقسيمات الفضاء، حيث يأخذ فضاء البراني وقتا للتحضير للحمام و نزع الملابس أو ارتدائها و الدردشات الجانبية و اللقاءات الحميمية لقاء و فراقا. حيث يعتبر زمن الحمام الفرصة النموذجية لعقد اللقاءات الاجتماعية.

كما يأخذ زمن المخصص للفضاء الجواني الحصة الأكبر، حيث يتقاطع فيه الاستحمام بمتعة البخار وحرارة اللقاء، و التدليك و الغسل و التجميل كطقس الحناء و الغاسول و معالجة القدمين و إزالة الشعر من مختلف أجزاء الجسم و تبيض الأسنان و الاعتناء بالبشرة.

أما الزمن الخاص بالفضاء الوسطاني فهو في غاية الأهمية من الناحية الأنثروبولوجية، حيث يتقاطع فيه المقدس مع الأرضي، إنه فضاء أخذ قسط من الراحة زمنيا و مكانيا، و تفتح فيه المواضيع المحرمة و المغلقة التي تتعلق بالجنس و الجسد و العلاقات الحميمة و الزواج و الطلاق و مراقبة الأجساد.

إن زمن الحمام هو الآخر مرتبط بالذكورة و الأنوثة حيث تقسيم الوقت بما يتناسب و نشاط كل جنس، يقول عمر كارلي Omar Carlier: "أن ولوج الحمام كان دوما مضبوطا بزمن مقسم حسب الجنس الأنثوي و الذكوري، فعادة ما يكون زمن الرجال في الصباح، أو قبل صلاة الفجر، أو في المساء، أو قبل العمل، أما النساء فتلجن الحمام قبل منتصف النهار (قبل وقت الغداء) و عادة ما يكون استحمامهن بصحبة أطفالهن"²⁴، دون سن البلوغ، و لكن بعد هذا السن يصبح الطفل غير مقبولا استحمامه وسط النسوة، و هنا تبادل الطيابة أو الحمامية إلى لفت انتباه الأم بقولها: "لقد كبر ابنك فلا تصطحبيه معك"⁴³.

إن البعد الديني و تحذير الفقهاء من الاختلاط و مراقبة المجتمع لبعضه، ترك مجموعة تقاليد محلية ضابطة للحمام التلمساني، حيث يعرف أن النهار للنساء و المساء للرجال و الوقت الفاصل بينهما يستعمل مجموعة من الرموز

²⁴ Carlier, O, *op.cit.*, p. 1306.

⁴³ بوحدية، عبد الوهاب، مرجع سابق، ص. 218.

المحلية مثل تعليق الفوطة عند مدخل الحمام لمعرفة أن وقت النساء لم ينتهي، أو تكون الطيابة هي المبلّغة لانتهاء وقت الحمام بالنسبة للنساء و بدايته للرجال. إن زمن الحمام هو زمن تطويع الفرد للجسد و المجتمع للجنسي و القدسي و تفرغ لشحناته، و مكان لتقاطع اللذات و الحاجيات و فضاء استراتيجي و ضروري للمجتمع المحلي لتدبير شؤونه الخاصة.

4. تجليات طقس الاستحمام

الحمام تقليد في المجتمع التلمساني يُعاد إعادة إنتاج منظومة قيمه و معاييره الاجتماعية باستمرار، خصوصا من خلال التكريس الزمني لثقافة الاستحمام، المحددة عند الانسان التلمساني وفقا لرزانة قد تكون يومية في أحيان أو أسبوعية في أغلب الوقت و حسب الضرورة، هذا جعل من الحمام ظاهرة اجتماعية لافتة، يمكن من خلالها فهم سلوكيات و ممارسات ساكنة تلمسان و علاقاتهم بالحمام و الاستحمام و طقوسه، فقد دأب هؤلاء على تنظيم رزنامة حياتهم الجنسية و الاجتماعية مثل الزواج، الوضع و الخطبة و غيرها مع ما يتناسب و زمن الحمام و فضاءه .

و الاستحمام كظاهرة سوسولوجية و أنثروبولوجية يمكن تقسيمها على ثلاث متواليات أساسية :

4.1 ما قبل الاستحمام

و يتعلق الأمر بتقديم الجسد و الواجهة الاجتماعية و الخطاب عبر الألبسة و الأقمشة و طرق التزين و كمية المجوهرات و نوعيتها، التي تأتي بها النسوة إلى الحمام على خلاف عن الرجل من أجل التباهي و توضع عند صاحبة الحمام، و التي تقوم بدورها بتمرير الخطاب المراد توصيله سواء قصدا أو بغير قصد و تصبح بعض النسوة محل نقاش و جدل داخل الحمام و خارجه، و بعد أن يستوفي المستحم/ المستحمة كل شروط تقديم الذات، ينتقل أو تنتقل إلى الفضاءات الأخرى .

4.2 لحظة الاستحمام

يدخل المستحم الفضاء الجواني الكثيف بالبخار فيختار و يُحصّر المكان، الذي يناسبه و المبني على الجوار داخل الحمام و استراتيجية و وضعية

المراقبة، فيختار الرجل الكياس، الذي يقوم بتدليكه و هو الأمر نفسه مع المرأة، وبداية يُغسل مكان الاستحمام و يحرص الجنسين على ذلك بنفسهما، لوجود اعتقاد شعبي راسخ يخص المرأة، التي لا تغسل مكان جلوسها أنها معرضة للحمل عبر التقاطها لمني رجل خصوصا أن حمام الرجال هو نفسه حمام النساء، حيث يتم التداول عليه على حسب توقيت كل فئة. و هذا ما سماه بوحديبة بـ " جنون الحمام"⁴⁴، و بعد ذلك يتم ملأ الجايبات بالماء بعدما يتم تعديل درجة حرارته بحسب كل فرد و الغرض من استحمامه، ليكون الماء ساخنا أو فاترا أو باردا.

و بعد عملية التعرق تقوم الطيابة أو الكياس بحك جسم المستحم/ المستحمة، و هنا تختلف الممارسات الرجالية عن الممارسات النسائية لعملية الاستحمام و خصوصا حركات التكياس، و التي تقوم على القوة البدنية للمكيس و المتكيس عكس المرأة، التي يتم فقط تدليكه بلطف، و بعده تقوم بغسل شعرها و ترطيبه و تليينه وربما تغيير لونه، و بعدها تحضر نفسها للخروج من الحمام سواء بطلب المآزر من الطيابة للخروج منه، أو قد تأتي بها هي سلفا.

3.4 ما بعد الاستحمام

بعد خروج المستحم سواء منه الرجل أو المرأة من الحمام يقومون بتجفيف أجسادهم من الماء و الاسترخاء و تناول بعض الفواكه و خصوصا الحمضيات في فصل الشتاء، و كذا بعض المشروبات الباردة، بعدها ينخرطون في سوق الحمام الصغير، الذي تباع فيه بعض الألبسة و أدوات التزيين. تتبع هذه المرحلة الأخيرة بعملية التجميل و التزيين، و التي تأخذ وقتا خصوصا عند الجنس الأنثوي المعني بها أكثر، و في خضم ذلك تبدأ المراقبة، و كما يقول عبد الوهاب بوحديبة "الحمام هو المكان الذي يرق فيه حسّ الملاحظة و خصوصا مراقبة جسد المرأة"⁴⁵ كما هو فضاء للحوار و النقاش و الحميمية، التي تجعل من الحمام "الفضاء الأكثر اجتماعية و ألفة و مخالطة"⁴⁶، التي قد تمتد لزمان قد يقصر

⁴⁴ بوحديبة، عبد الوهاب، مرجع سابق، ص. 244.

⁴⁵ بوحديبة، عبد الوهاب، مرجع سابق، ص. 222.

⁴⁶ Traki, Z. (1984), « Symbolique corporelle et espaces musulmans », in *Horizon maghrébin*, Tunis, p. 65.

أو يطول كما هو الحال عند النساء، اللاتي تعتبرن الحمام عاملهن الخاص، في مقابل تعدد فضاءات عند الرجال، و تنتهي هذه المرحلة بالعودة إلى الأسرة و فضاء البيت.

III. الحمام التلمساني: معمار حضاري و فضاء للمشاكل الاجتماعية

ما سنحاول مقارنته ضمن هذا الجزء الثالث من البحث، هو ثلاثة نقط تصب كلها في بعدين كبيرين، يتعلق الأول منه بالجانب الحضاري للحمام، في مقابل ما خلفه تحول المجتمع و الهجرات إليه و ما أدى معه من تريفيف للمدينة، أما في البعد الثاني فسنقارب معمار الحمام من حيث المشاكل الاجتماعية، التي أصبحت تطرح مع سياقات العصرنة، التي عرفها، في الجزء الثاني منه سنتوقف بالتحليل للمسرحة الاجتماعية، التي تجري بين جدرانها، و التي تجعل من الحمام الفضاء-المنتدى، الذي يوفر سبل التماور و التبادل الاجتماعي و الحميمية.

1. الحمام فضاء للتحضر أو للتريفيف

منذ تأسيس تلمسان أو بوماريا الرومانية عرفت المدينة بناء عدد من الحمامات، حيث عرف سكانها الأوائل هذا الفضاء التمديني الجديد بشكل طور علاقتهم بالماء و العمران، من خلال ترسخ ثقافة استحمامية- مائية و عمرانية جديدة على المجتمع البربري الذي قطن بالمنطقة، و بعد إسلامها صاحبت ذلك بالكثير من القيم التحضرية من قبيل التضامنت و الاجتماعية الإنسانية، التي عرفت حياة هذا المجتمع المحلي، و التي أضيفت إلى جانب الأدوار الأخرى للحمام. و كان في التعاقب الحضاري على المدينة و أهلها سواء أثناء حكم الموحدين أو الزيانيين، و حتى الأتراك أثر بارز لدور الحمام التحضيري، و قد خص في زمن لاحق خلال الاستعمار الفرنسي النسيج المدني عن الريفي، بحيث كان يشكل هوية الحضري عن الريفي، غير أن الزمن اللاحق من الاستقلال، فإن النسيج المدني بتلمسان عرف حراكا و هجرات ريفية لمناطق مختلفة بشكل أثر سلبا و إيجابا في أدوار الحمام من قيم و عادات مصاحبة لحياة هؤلاء، و الذين أعادوا إنتاجها في فضاء المدينة و من خلالها الحمام، بشكل لم يعد معه هذا

الأخير امتيازا وتميزا مديني، بل شمل معماره جميع أرياف تلمسان ودخل حياة أفرادها مثلما دخلوه هم أيضا.

2. الحمام ومشاكله العصرية

إن الانفتاح الذي عرفه المجتمع التلمساني الحديث عبر توريد قيمي و سلوكي و معارفي مسّ الإنسان بالمنطقة و من خلاله معمار الحمام، إضافة إلى المشاكل الكلاسيكية من قبيل العري، فإن مشاكل التجسس و التصوير بآلة التصوير و الكاميرا و حتى بالهاتف النقال، أصبح موضة سلبية ولجت بعض حمامات المدينة. فكان من مخلفات هذه العصرية التكنولوجية اليوم الكثير من المشاكل، التي مسّت أدوار الحمام، برغم لما لدورها من تنمية و تطوير كمي و نوعي في تسيير و عمل الحمامات.

3. الحمام كفضاء لمسرحة اجتماعية

عادة ما يرتبط الحوار و النقاش الداخلي في الحمام بين المستحمين أو المستحمت بشكل أو بآخر بالحياة الاجتماعية بمختلف مشاكلها و أبعادها جعل من "الحمام منتدى اجتماعي"، و عادة ما يتميز حديث الرجال عن النساء، فالحوار النسوي عادة ما يأخذ وقتا أطول منه عند الرجال، و ذلك نظير الزمن، الذي تقضيه النسوة في الحمام عكس الرجال، الذين يتوفرون بدورهم على فضاءات تتيح لهم ذلك مثل "المقهى"، فيأخذ تبادل الحوار، الأخبار و عناوين و محطات عديدة طوال فترة الاستحمام. فقد تتعلق بالجسد نظرا لحضوره الرئيسي و رهانيته في الاستحمام، فيكون محور ذلك النقاش و من أهم موضوعاته، خصوصا ما تعلق منه بالبحث عن معايير الجمال و الزينة و التجميل باعتبار ذلك مطلب الجنسين. كما أن مشاكل البيوت و الأقارب بدورها لها حضور في الحديث والحوار، و تتسع دائرة هذا الحوار و كثرة الأخبار كلما اتسع حجم المستحمين و تعارفهم. فيأخذ تبادل الأخبار فضاء يتسع بشكل قد يتناول الحي أو المدينة أو المناطق المجاورة لها، و حتى البلد و من ثمة العالم، كما يكون الحزب الفلاني، الطبيب الفلاني أو الولي والمرابط الفلاني أو حتى المشعوذ الفلاني من مضمون الحوار بين مختلف الجنسين، يقول عمر كارلي Carlier

Omar في هذا الصدد: " الحمّام ميدان و فضاء خصب للسحر..."⁴⁷ ، و الحمّام في الأخير هو فضاء للاجتماعية الذكورية و الأنثوية، التي تتشكّل معالمها بالتعارف و الحوار والتحدث المتبادل.

خلاصة

لقد ارتبط تاريخ تلمسان ومجتمعها بالحمّام، حتى أصبح معيشا أساسيا و رمزا لهويته. فقد زحرت هذه المدينة منذ القدم بأحسن الحمّامات و أميزها ببلاد المغرب، فكان ذلك عنصر رامن لتميّز المجتمع التلمساني، و من ثمة ساهم الحمّام بوصفه فضاء تنظيمي و اجتماعي و ثقافي و خدماتي في ترسيخ ذاكرة و هوية المنطقة، بشكل مكن من تواصل وإعادة إنتاج هذا التراث و قيمه ضمن طقوس و ممارسات ساكنة تلمسان عبر أجيالهم المختلفة، و طبع مخيالهم السوسيو ثقافي انطلاقا من التأريخ لهم عبر مؤسسة الحمّام.

إذا كان ذلك يمس الجانب الثقافي خصوصا، فإن دور الحمام اجتماعيا تعدى ذلك إلى صناعة اجتماعية الإنسان التلمساني كما وطد تضامنااته سواء في فترات رخائه و هنائه، أو حتى في فتراته العصيبة. في المقابل كان دوره الديني ذي أهمية كبيرة أيضا فقد ربط المخيال الشعبي المحلي دوما بين الحمّام و الدين من خلال عنصرَي النظافة و الطهارة، و من ثمة شطري الإنسان الدنيوي و القدسي، و ما يتضمنه الحمام من رمزية تحيل إلى النظافة و الإيمان و الجنة على عكس مع الوسخ، الذي ربطه بالشيطان و جهنم. و منه شكل الحمام دوما طقسا ضروريا للعبور من النجاسة و الدنيوي إلى الطهارة و الدين و فرائضه و شعائره.

عموما يبقى الحمام ظاهرة تحيل إلى كل ما هو سوسيوولوجي و أنثروبولوجي، فهو جزء مهم من ممارسات مجتمع تلمسان اليومية و طريقتة في العيش، كما يطبع جزء مهما من ذاكرة و ثقافة هذا المجتمع و تمثلاته، فهو الفضاء الأبرز في مورفولوجية المدينة إلى جانب المسجد والسوق، اللذين يعتبران مركز التقاء الرجال بينما يظل الحمام إلى جانب المقبرة الفضاء النموذجي للقاء و تبادل الخبرات و التواصل عند النساء.

⁴⁷ Carlier, O, *op.cit.*, p. 1312.

و إلى جانب اعتباره عتبة للمرور من الدنس إلى الطهارة، و من الأرضي إلى المقدس، فإن الحمام يوفر سبل الانتقال من الواقعي إلى التخيلي، عبر رسم معالم محددة لهوية الشعوب و ثقافتها، كما يعتبر مؤسسة مساهمة في التنشئة و تفريخ قيم المجتمع و معاييرها الاجتماعية، عبر التبادل المادي و الرمزي و اللقاء، و تمتين أواصر العلاقات و الحميمية الاجتماعية عبر الصداقة و الخطبة و الزواج. و من ثمة كان و يبقى الحمام بتلمسان الموروث الثقافي و الصحي و الطهوري، الذي وفر دوما سبل العلاقة الانسانية و الجسدية، كما كان دوما عالما للترفيه و الفرجة، و مصدرا للالتذاذ و تطوير الذات و استخدام مختلف المواد التقليدية و التجميلية، لصناعة جسد، يتقن قواعد لعب المعاشرة الزوجية و استراتيجياتها و جالب للاهتمام، و سامح للعلاقة مع الآخر و مع الله و عبادته خصوصا.

بيبليوغرافيا

- ابن خلدون، عبد الرحمن (2004)، مقدمة العلامة ابن خلدون المسمى: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ط1.
- ابن منظور محمد بن مكرم الأفريقي (1988)، لسان العرب، ج1، ج12، دار الجيل، بيروت، دار لسان العرب، ط1.
- الشيخ الإمام عبد الرؤوف المناوي (1987)، كتاب النزمة الزهية في أحكام الحمام الشرعية و الطبية، تحقيق و تقديم الدكتور عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية للطباعة و النشر و التوزيع، (د.م.ط)، ط1.
- بن نصر الشيزري، عبد الرحمان (1946)، كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشر السيد الباز العربي، القاهرة.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله (بتط)، معجم البلدان، ج1، دار الفكر، بيروت، ط1.
- بنحمادة، سعيد (2007)، الماء و الإنسان في الأندلس، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، ط1.
- كريم، فضيلة (2007)، الحمامات" موجز تاريخ الحمامات، ترجمة يوسفى حضرية، دار النشر دحلب، الجزائر.
- فيلاي، عبد العزيز (2002)، تلمسان في العهد الزياني دراسة سياسية عمرانية، اجتماعية، ثقافية، ج1، موفم للنشر و التوزيع، الجزائر.

- كرد، محمد علي (1972)، *خطط الشام*، ج 6، دار العلم للملايين، بيروت، ط2.
- بهيني، عبد المجيد (2008)، "الحمامات العمومية و الديمغرافية التاريخية: أية علاقة؟"، الحمامات الشامية أنموذجاً"، من الكتاب الجماعي *دراسات تاريخية في العمارة و السكن*، منشورات كلية الآداب و العلوم الانسانية، رقم 94، جامعة محمد الأول، وجدة.
- بوحدبية، عبد الوهاب (2000)، *الجنسانية و الاسلام*، ترجمة مقلد محمد علي، سراس للنشر، تونس.
- بوحدبية، عبد الوهاب (2001)، *الإسلام و الجنس*، ترجمة و تعليق العوري، هالة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2.
- لعيبي، شاكرا (2007)، *العمارة الذكورية: فن البناء و المعايير الاجتماعية و الأخلاقية في العالم العربي*، رياض الرئيس للكتب والنشر، بيروت، ط1.
- موساوي، سليمة (1999)، "حمامات مدينة تلمسان: نموذج حمام الصباغين"، من مجلة الثقافة، اصدار وزارة الثقافة و الاتصال، الجزائر، السنة الرابعة والعشرون، العدد. 119.
- بوعزيزي، محسن (2010)، *السيميولوجيا الاجتماعية*، إصدارات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1.
- السباعي، خلود (2006)، *الجسد الأنثوي و هوية الجندر*، دار القلم للطباعة و النشر و التوزيع، الرباط، ط1.
- وارهام، أحمد بلحاج آية (1997)، *شعرية الحمامات*، دار وليلي للطباعة و النشر، مراكش، ط1.
- Lewis, B., Ménage, V.-L., Pellait, Ch., Schacht, J. (1990), *Encyclopédie de l'Islam*, t. III, Paris, nouvelle édition, maison œuvre et la rose.
- Brosselard, Ch. (1985), « Les inscriptions arabes de Tlemcen », 3^{ème} année, n° 03, in *Revue Africaine*, années 1858-1859, Office des publications universitaires, Alger, Edition n° 1928.
- Carlier, O. (2000), « les Enjeux Sociaux du Corps, le Hammam Maghrébin (19-20 siècle) lieu pérenne, menacé ou recréé », in *Annales, Histoire, Sciences sociales*, 55 année, n° 6, Nov-Déc 2000, Paris, Editions de l'Ecole des Hautes Etudes en Sciences Sociales.
- Traki, Z. (1984), « Symbolique corporelle et espaces musulmans », in *Horizon maghrébin*, Tunis.